

## I. فى الثقافة العلمفة

- \* خواطر تراثفة ومعاصرة عن الثقافة العلمفة الحائرة??
- \* البحث عن أحفاد « عطا الله »???
- \* ملاحظات منهجفة حول الثقافة العلمفة
- \* نحو خرفطة معرففة للترجمة العلمفة
- \* الفهم المجتمعى للعلم



## خواطر تراثية ومعاصرة عن الثقافة العلمية الدائرة ١١

يعد مصطلح «الثقافة العلمية Scientific Literacy» من المصطلحات الحديثة نسبيًا، حيث ذكره شاموس لأول مرة في خمسينات القرن العشرين (١٩٥٨). لكن التاريخ البشري حفل بالعديد من الأعمال والمحاولات التي تتفق مع دلالات مفهومه، قبل وبعد القرن السابع عشر الميلادي، الذي اصطلح على أن يؤرخ لظهور ما يعرف بالعلم الحديث، وقد عبرت هذه الأعمال بالطبع عن مستوى «المعارف العلمية» في زمانها، وغلب عليها الطابع الوصفي والحدسي، ولم يكن التجريب حاضرًا دائمًا، وهذا أمر مفهوم لا يدينها، فقد بذرت بذور العلم والثقافة العلمية، حتي وإن اختلطت في حينها بالأساطير والخرافة. ولا شك أن دارسي «أنثروبولوجيا العلم» يمكنهم ذكر الكثير في توضيح ذلك. إننا نجد مثل هذه الأعمال عند الإغريق والهنود والصينيين وغيرهم، ونجد عند العرب والمسلمين - كما سنرى - معالجات أكثر نضجًا وعقلانية تدفعنا إلى أن نتحسر على حالنا!!!

ومع تقدم المعارف العلمية، منذ ظهور العلم الحديث وحتى بزوغ ما يعرف بالثورة العلمية والتكنولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين، تطورت أشكال الثقافة العلمية، التي تحاول تقديم المعارف العلمية وتطبيقاتها للمجتمع. واتضح معالم «الخيال العلمي» كأحد المجالات الإبداعية للثقافة العلمية، التي تشد انتباه الجميع، والذي تحولت بعض نماذجه إلى أعمال فنية شهيرة في السينما بالذات. وتأسست «صناعة الإعلام العلمي» في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وأخيرًا الإنترنت، واعتدت بعض الدول بتوظيف أدوات الثقافة العلمية في تطوير وتدريس (تعليم وتعلم) العلوم، كما هو الحال في مشروع «العلم لكل الأمريكيين»، الذي يستهدف أن يكون كل مواطن أمريكي على ثقافة علمية كافية في عام ٢٠٦١، عند اقتراب مذب هالي مرة أخرى من الأرض، حيث بدأ التفكير في هذا المشروع طويل المدى عند اقترابه لآخر مرة في ثمانيات القرن العشرين، وازداد الاهتمام بالمتاحف والمتنزهات والحضانات العلمية، التي تشجع صغار المبدعين والمكتشفين والمخترعين.

وكالعادة نسأل: أين نحن من هذا كله؟ ونصيب ونخطئ في تقديم الإجابات والحلول. بداية، من السهل أن نتفق على ضعف الثقافة العلمية في واقعنا العربي المعاصر كمياً وكيفياً، وعلى عظم الفجوة بيننا وبين الدول المتقدمة، بل والكثير من الدول النامية، في هذا الأمر. إن مجالنا الثقافي والإعلامي يضحج بالكثير مما هو غير علمي وغير عقلاني، من قراءة الطالع والنجوم وحكايات العفاريت، إلى الممارسات العلاجية الضارة وغير المقننة باعتبارها طباً شعبياً كما يقال. ويمتد الأمر إلى الخلط المعيب بين الدين والعلم، بما يضر الاثنين، لاختلاف المنهج والمصطلحات. وهذه نقطة هامة تستحق التوقف عندها، وبحث العلاقة الصحية السليمة بين مجالين حيويين لا تتكامل الحياة إلا بالاستفادة منهما، فالدين مطلق، يقوم على الأيمان واليقين، والاجتهاد في تحقيق مقاصده، باعتباره مصدرنا الرئيسي لمنظومة القيم والأخلاقيات التي تحكم علاقتنا وتصلح حياتنا. والعلم نسبي، يتقدم بالتجربة والشك والتخطئة طلباً لمزيد من التصحيح والتدقيق المستمرين. لقد مكنتنا الله منه، ودعانا إليه، لنفهم العالم

ونطوعه لصالح البشر ، مسترشدين بما يقدمه الدين من قيم وأخلاقيات (العلم النافع، كما جاء في دعوات رسولنا ﷺ). هذه العلاقة الصحية كما أراها تجعلني أتخفظ على بعض الممارسات الأخرى، مع احترامى لأصحابها ونواياهم. فالتوصل إلى حقيقة علمية نسبية في زمانها ومكانها لا يجعلني أتسرع في ذكر ورودها في القرآن مثلاً، أو أسمى ذلك إعجازاً. هذه الحقيقة قد تتغير، أو يتم تدقيقها. والعلم في القرآن ليس كعلمنا، إنه «علم معجز» في إحاطته الشاملة وصحته المطلقة، لأنه كلام الله تبارك وتعالى، الذى لا يأتيه الباطل من أى إتجاه. واسمحوا لى ألا أزيد فى هذه النقطة الحساسة، مكتفياً بهذا القدر من التلميح دون التصريح.

والحقيقة أن ضعف الثقافة العلمية قد دفع بعضنا إلى استنتاج خاطئ مؤداه أن مجتمعاتنا كارهة ورافضة للعلم، تتخفظ عليه وتشكك فى قمته. وهذا حكم ظالم تماماً. إن البسطاء يصفون العلم بالنور «العلم نور» ويوفرون من قوتهم وحاجاتهم الضرورية ما يمكنهم من الإنفاق على تحصيل

أبنائهم للعلم والتعليم. وقد لا يدرك القائلون بكراهية مجتمعاتنا العلم، أن أغلب الممارسات غير العلمية تقدم إلى العامة بشكل مضلل باعتبارها علمًا، حيث يقبلها الناس. وهنا تقع علينا المسؤولية العلمية والأخلاقية في الكشف عما هو علم، وما هو غير ذلك، دون أن نتهم أهلنا بالعداء للعلم أو رفضه. إنني، على العكس من هؤلاء، أرى أن مجتمعاتنا تحب العلم بشكل فطري وإيماني عميق، وأن هذه النقطة إيجابية يجب أن نوظفها في نشر الثقافة العلمية، معرفيًا منهجيًا، والتصدي لما يخالفها.

ومع الدعوة الملحة إلى الانفتاح على العالم، والبعد عن العزلة في عصر العولمة، أحتفى دائمًا بالاستفادة من دروس تراثنا الحى، ولحظاته المضيئة. ففي الفترة التي امتدت من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلاديين، قدم علماءنا ومفكروننا العظام الكثير مما يشهد به الغرب من معارف علمية واسعة، وثقافة علمية جذابة. فبالإضافة إلى ما قدموه في الفيزياء والفلك والنبات والحيوان والطب والبيئة، تطرقوا إلى

مفاهيم علمية كالتقسيم والتصنيف والتطور. وصاغوا ما يمكن أن نعهده خيالاً علمياً مبكراً في قصص الحيوان وغيره من الكائنات. بل إن بعض أعمالهم تطرقت إلى وسائل إيضاح لها ما يقابلها اليوم، في هذا الشأن، أحكى لكم النموذج الذي شرحه عالمنا المدقق د. عبد الحافظ حلمي، ونشره في حوليات مجمع الخالدين عن إخوان الصفا، مأخوذاً عن إحدى رسائلهم.

في الرسالة السادسة والعشرين لهذه «النخبة الثقافية العربية» حكاية عن ملك أراد أن يربى أولاده على العلم والحكمة، فبنى لهم قصرًا في قبة مجلسه «صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها، وأبراج طلوعاتها، وكذلك الكواكب وتحركاتها، وأوضح دلائلها وأحكامها». هكذا وصف إخوان الصفا، في كلامهم الوارد بين القوسين، للقبّة الساهوية كما نعرفها اليوم!!! ويستطردون قائلين: «وصور في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم، وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار». ألا يعد ذلك وصفًا مبكرًا

للأطالس؟؟؟!! ثم ينتقل حديثهم إلى صدر المجلس حيث صور «علم الطب والطبائع، وصور النباتات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها... إلخ». وهذا لعمرى شرح جميل لوسائل الإيضاح عن الكائنات الحية والجماد، بل وبعض التطبيقات. إن المهتمين بالثقافة العلمية يعرفون رائعة «كارل ساجان» عن الكون، ومنهم من شاهد الفيلم الذى تعرضه مكتبة الإسكندرية عن نفس الموضوع، بدءًا من الانفجار العظيم وحتى ظهور الحضارة. إننا نقدم لهم رائعة إخوان الصفا لنؤكد حضورنا المبكر الرائع فى تاريخ الثقافة العلمية، رغم غيابنا الحاضر المعيب.

وقبل أن أترك هذه الخواطر التراثية، التى تستحق الإعجاب والاستيعاب، أشير إلى عناية أجدادنا المجتهدين بالمفاهيم، التى تعد من أهم المسائل التى تدرس فى تاريخ العلم وتاريخ الأفكار. وأخص بالذكر مفهوم التطور، الذى أضافوا إليه الكثير، إن العالم يعترف بأن الجاحظ كان أول من

قدم شرحًا متكاملًا له، ولا ننسى اجتهادات ابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون وغيرهم. لقد ذكر درابر، المعاصر لداروين، أن «المحمديين» كما كانوا يطلقون على المسلمين، كانت لهم نظرية متكاملة عن التطور، وأن أعمالهم المترجمة لا بد وأن تكون قد أثرت، بشكل مباشر أو غير مباشر، على علماء الغرب. لن أحيل القارئ إلى المراجع العديدة التي تفصل ذلك، وأخرها كتاب جذور الأسلاف (٢٠٠٩)، واكتفى بأن يقرأ ما هو متاح في الموسوعات الحرة مثل ويكيبيديا، والمواد العديدة على الإنترنت.

والجدير بالذكر، أن أسلافنا نحن قد قدموا هذا المفهوم، الذي تحول إلى علم تقوم عليه دراسة الكائنات الحية، وتطبيقات لا غنى عنها، بأسلوب ثقافي جذاب، يعد نموذجًا للثقافة العلمية الملائمة لعصرها، بزخر بالمعارف العلمية المتاحة، التي تحكم عليها في سياقها، ولا يخلو من الشعر والطرائف والقصص التي تشد انتباه المتلقين.

وإذ نذكر الحضور المبكر والغياب الحاضر للثقافة

العلمية، فلا بد وأن لكل أسبابه، التي تستحق المعالجة المستفيضة في غير هذا الموضوع. لكننا يمكن أن نوجز الأمر بتأكيد دور الاجتهاد والإبداع إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، الذي أخذه الغرب عنا واستفاد به في نهضته، وغروبها المتزايد عندنا، بما أدى إلى ما نحن فيه من غياب. إن الباحث المنصف يجد في حضارتنا كل العناصر اللازمة، التي تسمح بثقافة علمية إنسانية راقية، من اقتناع بوحدة البشر واستيعاب لتنوعهم، ودعوه للعلم والنظر في الكون والأرض ومخلوقات الله، وأنفسنا على قمتها، والتمسك الأخلاقي بالعلم الذي ينفع الناس... إلخ. ولا يكفي أن نكرر هذه «الولولة الحضارية» على ماضينا، لكننا يجب أن نعرف كيف نوظفها لبناء مستقبلنا، منفتحين على العالم كما فعل سلفنا العظيم. لقد أخذوا عن الإغريق وغيرهم، وأضافوا واجتهدوا وطوروا، وأفادوا غيرهم. وعلينا أن نستوعب تجربتهم، دون أن يعنى ذلك دعوة إلى «ماضوية» لا طائل من ورائها. فهذه الاستفادة الحضارية المطلوبة يجب أن تتم بأساليب وأدوات ومفاهيم جديدة، تتناسب مع مقتضيات

العصر ... عصر العولمة، التي جاءت لتبقى، وإن كنا نتمنى أن نشارك باجتهادنا في رسم ملامحها المستقبلية.

وأظننا لا نبالغ إذا ما ذكرنا أن الحاجة الملحة إلى زيادة علمية وعقلانية مجتمعاتنا العربية تقتضى تشجيع كل الجهود الرامية إلى نشر الثقافة العلمية بكل الوسائل، بما في ذلك تطوير تدريس العلوم (تعليمًا وتعلمًا)، وإحداث طفرة في الإعلام العلمى، مع تنقية الإعلام عمومًا، والتليفزيون خصوصًا، من الشوائب غير العلمية. وفي سبيل ذلك، علينا الاستفادة من التجارب العلمية، وتوضيح العلاقة السليمة، التى تقوم على التكامل لا الخلط، بين الدين والعلم، وتأكيد تعامل دعاة التنوير فى حياتنا الثقافية مع العلم باعتباره «تنوير التنوير».

ولا بأس من أن نوضح أن مرجعيتنا فى ذلك ليست غربية خالصة، لكنها نابعة من تراثنا، إن المرجعية الغربية فى تجربة التنوير لا يمكن ولا يصح تجاوزها، فهذا ما لا يقول به عاقل. لكن التجربة تعلمنا أيضًا، هى والمنهج العلمى الذى

تقوم عليه، أن «النقل الكمي» لاتجاهات التقدم، الذي لا يتعامل مع «السياق الثقافي»، ولا يحتفى به، يكون قليل الأثر. إننا ندعو إلى «النقل الكيفي» لهذه الاتجاهات، وتوظيفها في الالتحام بسياقنا الثقافي، ومحاولة تطويره ومواجهة سلبياته. هذا هو السبيل الأمثل لأحداث «نقلة نوعية» في كل المجالات التي نحتاجها، بما في ذلك مجال الثقافة العلمية.

ختامًا، أود إحقاقًا للحق، أن أذكر بعض الجهود التي تمت لتطوير الثقافة العلمية في الوطن العربي، لقد نشأت العديد من اللجان المختصة بذلك في دول المنطقة. ونشرت «المنظمة الغربية للتربية والثقافة والعلوم» إستراتيجية لم تفعل حتى الآن، ونظمت «مجلة العربي» في نهاية عام ٢٠٠٥ مؤتمرًا كبيرًا، شارك فيه عدد من المهتمين. وتحاول العديد من المطبوعات الخاصة بالثقافة العلمية الاستمرار، مع تفاوت المستوى. وكقارئ وناقد، لا أجد حرجًا في أن أذكر أن من أفضلها مجلة «علوم وتكنولوجيا» التي يصدرها معهد الكويت للأبحاث العلمية، والملحق العلمي المتميز لمجلة

العربي. وهناك اهتمام نسبي بترجمة الأعمال العلمية المبسطة (المركز القومي للترجمة في مصر نموذجًا)، وحضور يجب أن يزيد للمتاحف والمراكز الاستكشافية العلمية. لكن الطريق مازال طويلاً، ويحتاج إلى دراسات جادة لتحليل الفجوة بين الواقع والمأمول، وقياس أثر هذه الجهود والتنسيق بينها. والأهم من هذا كله «ضبط جودة» ما يقدم، كخطوة كعملية لازمة، تساعد على أن تقوم «العملة الجيدة» بطرد «العملة الرديئة»، وليس العكس.

## البحث عن أحفاد «عطا الله»!!!

في أكتوبر ١٩٢٠، أضاف القارئ عطا الله محمد إسماعيل كتابًا إلى مكتبته وحرص على تسجيل هذا التاريخ بخط جميل على غلافه الداخلي، وبعد عشرات السنين اشترى لي تلميذي الدكتور علاء سعد الدين «نسخة عطا الله» من أحد باعة الكتب القديمة، لأنه يعرف حبي المتطرف للكتب القديمة جدًا والحديثة جدًا، في أن واحد. فالكتب القديمة تعرفنا بالأساس الذي بنيت معارفنا العلمية عليه، والحديثة توضح لنا إلى أي مدى ارتفع البنيان. أن الفهم الأفضل لحاضر العلم ومستقبله يقوم على استيعاب تاريخه وتطور مفاهيمه وأدواته. ورغم أهمية هذا الموضوع، ودعوتى إلى العناية به ثقافيًا وتعليميًا، إلا أنني في هذا المقال أود أن نهتم «بنموذج عطا الله» هذا القارئ الناقد والمدقق للكتب العلمية الجادة، فهو نموذج يستحق الإشادة والاستعادة لو صح التعبير!!!

أن عطا الله، الذى يعرف نفسه بأنه من مدرسة الحقوق، عاش في «أيام» محمد عبده وطفه حسين والعقاد وسلامة

موسى وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وإسماعيل مظهر، بكل ألوان الطيف الذى يمثلونه، لقد تحدثنا عنهم كثيرًا، وهم يستحقون ذلك. لكننا نكرر أننا نتحدث اليوم عن القارئ الذى عاش فى عصرهم. وأظن أنه لا يقل أهمية عنهم فى تشكيل المناخ الثقافى للأمة والمجتمع. أنه يمثل «الطلب» المحترم على الثقافة الراقية. لقد استشعر حاجته إلى أن يقرأ عن العلم، وكان من بين ما اختاره كتابًا ألفه أحد أساطينه، أعنى به كارل بيرسون مؤسس علم الإحصاء الرياضى. هذا الكتاب الذى أسماه بيرسون «أجرومية العلم» يناقش طبيعة العلم وعلاقته بالفرد والمجتمع، ويشرح منهجه ومجالاته، ومعنى الحقائق والقوانين العلمية والسببية والاحتمالات، وغير ذلك. ويتطرق إلى ما أنجزه العلم فى زمانه، سواء فى دراسة ظواهر الفيزياء أو علم الحياة ... وقد صدرت منه ثلاث طبعات (١٨٩٢، ١٩٠٠، ١٩١١)، وأعيد طبعها مرات عديدة، وبين يدي نسخة عطا الله من طبعة ١٩١١، وهوامشه التى كتبها موضحًا المراجع التى سيسعى إلى

الحصول عليها للاستزادة، ومن بينها كتاب آخر لبيروسون نفسه أبدى إعجابه به لأنه يتحدث عن أخلاقيات التفكير الحر، وآخر عن تطور العقل، وثالث عن علاقة دراسة علم الوراثة والانتخاب بعلم الاجتماع. ألا يدفعنا ذلك إلى أن نتساءل: أين أحفاد عطا الله!!؟

أن هذا التساؤل عن أحفاد عطا الله يدفعنا إلى تساؤل آخر عن المناخ الذى يدعم ظهورهم، وعن «العرض والطلب السائدين في أيامهم». الكتب الأجنبية مرتفعة الثمن وغير متاحة بالقدر الكافي في المكتبات العامة، والكتب العلمية العربية «سداح مداح» غير دقيقة وغير محكمة. والحال أفضل نسبيًا فيما يخص «بعض» الكتب المترجمة وأكرر كلمة «بعض» بإصرار، والإنترنت هي الأفضل، لمن يستطيع الفرز والانتقاء. هذا ما يستشعره من تقابلهم من أحفاد عطا الله. أنهم موجودون، لكنهم محبطون، أن حسم النقدي يجعلهم يستبعدون القنوات التلفزيونية العربية، الأرضية منها والفضائية، بشكل عام. فهي تقدم الكثير من البرامج التي

تنشر الخرافة واللاعقلانية، وتمتلى بالرغى واللغو والتسطيح والأخطاء العلمية. وعندما تناقش قضية علمية نقوم «بتبسيطها» لا تبسيطها. ويقدمون الأمثلة الدالة على ذلك: مذيع يعلن عن كشف علمى هام بعد الفاصل، ويأتى المتخصص بصورة قديمة لحيوان منوى يتحرك، ليؤكد أنه كائن حى وليس خلية حية (مصيبة علمية).. ويبنى على ذلك آراء ما أنزل الله بها من سلطان. وكتاب يتحدث عن ثورة الجينات ويصدر ضمن سلسلة شهيرة، فى فصله الأول ثلاثة أرقام شديدة التباين لعدد الجينات فى الإنسان (مصيبة أخرى). أرقام مغلوطة توحى بوجود البشر العماليق والبشر الصعاليك. ولا علاقة لها بما قاله العلم. ثم الخطأ الشائع فى التعامل مع العلماء ككائنات غريبة عنا، جاءت من كوكب العلم البعيد. يجلس المذيع أو المذيعة أمامهم بانبهار وعدم فهم، ويمطرهم بالأسئلة العبيطة. شكرًا يا أحفاد عطا الله، لقد وضعتم أيديكم على الداء، ومن حقكم علينا أن نبحث عن الدواء.

إن الدواء الذي اقترحه يؤجل الأهداف متوسطة أو بعيدة المدى، التي تتعلق بصياغة إستراتيجية طموحة للثقافة العلمية، تتضافر المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية لتنفيذها. أن هذه الإستراتيجية شديدة الأهمية، لكنني أتمنى بشكل واقعي التركيز في المدى القصير على أمر واحد، يتمثل في ضبط الجودة. أن حالة الثقافة العلمية عندنا لا ترضى أحدًا، سواء من حيث الكم أو الكيف. ولعل مطالبة الناشرين بتحكيم ما يعتمون نشره من كتب علمية، ومراجعة ما يترجم منها، والإعداد الجيد المدعوم بالاستشارة العلمية للمواد التلفزيونية التي تدعى مناقشة العلم والعلماء، ووجود مرصد لكشف اللاعقلانية والخرافة في برامج الطالع وقراءة الكف وتفسير الأحلام، واللاعلمية في الدعوة إلى بعض الممارسات الضارة بالصحة بعيدًا عن الضبط والتقنين، كل ذلك يعد خطوة أساسية منهجية لتهيئة المناخ لصياغة الإستراتيجية المنشودة وتفعيلها.

ومن المهم أن يصاحب ذلك تشجيع الشباب على الترجمة

والتأليف في المجالات العلمية المختلفة، وتحفيزهم بالمسابقات والمكافآت المجزية، حتى يصير لدينا كوادر جديدة قادرة على العطاء، أن ثقافتنا تستحق أن «نعطيها» هذا الدواء، الذي يجعل العلم جزءاً لا يتجزأ من نسيجها. أننا في حاجة إلى أن يكون مجتمعنا أكثر علمية وعقلانية واستنارة، ثلاث كلمات أكررها بلا مثل، «وفي هذا فليتنافس المتنافسون».

## ملاحظات منهجية حول الثقافة العلمية

أسعد كثيرًا بالاهتمام بالثقافة العلمية في مختلف أقطار الوطن العربي هذه السعادة تنبع من أسباب موضوعية، وليست عاطفية أو انفعالية. فنحن في حاجة فعلاً إلى أن تكون ثقافة العلم والتكنولوجيا مكونًا واضحًا في نسيجنا الثقافي، وأن نعمل على نشر الوعي بالمنهج العلمي واستيعاب منجزات العلم ودورها في تشكيل العالم وموازين القوى فيه وأن يمتد ذلك إلى دعم الجمود المخلصة لعودة العطاء العلمي المتميز لأستنا.

وكما أكرر دائماً، لن يتم هذا الأمر إلا بزيادة العناية بالجماعة العلمية والعمل على تنمية قدراتها، حتى تتمكن بدورها من تنمية قدرات مجتمعاتها.

وحيث يتم الحوار حول هذه القضية بأسلوب جاد، عمدت في مطلع العام الميلادي ٢٠٠٧ إلى نشر دراسة حول «مستقبل الثقافة العلمية في مصر». مؤكداً فيها على عناصر التشابه بين الواقع المصري والعربي. وداعياً إلى تعاون المهتمين

في العالم العربي لإحداث نقلة نوعية في هذا المجال. وقد تمت مناقشة الدراسة المذكورة في مكتبة الإسكندرية وأحد المراكز الثقافية المتميزة في القاهرة (ساقية الصاوي) وإحدى الجمعيات الأهلية العلمية (جمعية تحوتى). كما فرحت بعزم الأخوة في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية على صياغة إستراتيجية للثقافة العلمية بالمملكة. وأود في المقال الحالى أن أذكر الملاحظات المنهجية التالية:

\* إن كل ما يتعلق بالتطوير الثقافى يجب أن يجمع بين أمرين: الانطلاق من السياق والانفتاح على تجارب الآخرين ويدعونى إلى أن أورد هذه الملاحظة أن البعض يتبنى ويدعو إلى استيراد ثقافة العلم بطريقة «تسليم المفتاح» من الآخرين. ويستند فى ذلك إلى وجود بعض الممارسات الخاطئة فى مجال الطب والصحة بالذات، متناسياً أنها تقدم للناس ويقبلون عليها باعتبارها ممارسات علمية. ويعطون مثلاً على ذلك استخدام الأعشاب بطريقة غير مقننة أو مدروسة.

\* إننى أؤكد أن ثقافتنا العربية الإسلامية تحمل أكبر

دعوة عرفتها البشرية للعلم، وأن أبناءها لديهم (احترام فطري/ إيماني) للعلم والعلماء، وأن شيوع الممارسات اللاعلمية بسبب الأمية أو الظروف الاقتصادية يستغل هذا الاحترام. وعلى الثقافة العلمية الجادة أن تكشف هذا الزيف دون أن تدين السياق، وهذا لا يتنافى - كما ذكرنا - مع الاستفادة القصوى من تجارب الآخرين وأدواتهم المتطورة في نشر الثقافة العلمية من خلال التعليم والإعلام.

\* الملاحظة الثانية تتعلق بمفهوم الثقافة العلمية التي نود تقديمها للمجتمع: إن الاتفاق على هذا المفهوم ليس بسيطاً كما يتصور البعض. فهناك من يفضل أن يستغرق في تفاصيل المنجزات العلمية والتكنولوجية بشكل يصعب تتبعه على المتلقى العام، الذي نعرفه بأنه المتعلم غير المتخصص الراغب في استيعاب مغزى هذه المنجزات، ليكون أكثر فهماً ووعياً بالعالم الذي نعيش فيه. وبدور العلم والتكنولوجيا في تشكيل وحل مشاكله. بما في ذلك المشاكل التي تنجم عن التوظيف الخاطيء للمنجزات المذكورة كما هو الحال بالنسبة

للتلوث وأسلحة الدمار الشامل وبعض التطبيقات «المارقة»  
للوراثة والبيولوجيا، كـرغبة البعض في استنساخ البشر.  
وهناك فريق آخر يركز على التوعية بالعلم ومنهجه  
باعتبارهما من أهم أدوات التقدم. ويدعو إلى تحفيز دعمها  
وتوظيفها في المجتمع.

إن المفهوم الذي أرجوا أن نتبناه يقوم على التوازن بين  
«الحديث في العلم» الذي يميل إليه الفريق الأول، و«الحديث  
عن العلم» الذي يميل إليه الفريق الثاني. هذا التوازن يتمثل  
في تقديم ثقافة علمية تدعو إلى تقدير العلم ومنهجه وأهميتها  
في فكرنا وفعلنا، مع التعريف المستمر بمنجزات العلم  
والتكنولوجيا. والقراءة النقدية والأخلاقية لآفاق تطبيقاتها في  
حياتنا. ومن المفيد أن يصاحب ذلك العمل على زيادة الوعي  
بضرورة دعم المؤسسات العلمية والتكنولوجية الوطنية،  
وتنمية طاقاتها وتوظيفها، وإلقاء الضوء على جهودها وإثباتها  
عنها. فمع الدعوة إلى الانفتاح على المشهد العالمي للعلم، يجب  
أن تساعد الثقافة العلمية على «توطين العلم»، وتأكيد الدور

التاريخي للعرب والمسلمين في مسيرته، والتأكيد على أهمية العودة إلى العطاء العلمي، دون الاقتصار على اعتبار العلم والتكنولوجيا «بضاعة مستوردة»!!

آخر الملاحظات تتعلق بالجودة في الشكل والمضمون، هذا الأمر يستلزم شجاعة «النقد الذاتي» علينا أن نراجع أنفسنا، ونسأل ونجيب بأمانة.

كيف يقدم ويشرح العلم التكنولوجي في مؤسساتنا التعليمية والإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية؟ هل يقدم ذلك في مدارسنا وجامعاتنا بالشكل الذي ينتج مجتمعاً مستوعباً للعلم؟ وتكون من بين مخرجاته من العلماء المتميزين؟ وإذا ما قدمت وسائل الإعلام مشكورة مساحة ضئيلة للثقافة العلمية هل نقدمها بالشكل الجذاب والمضمون الواعي؟ أم أن الثقافة العلمية تعاني إعلامياً من مشكلتي الكم والكيف معاً؟ وهل يكفي، كما يحدث في كثير من الأحيان، أن نقدم تعليقات منبهرة لمنجزات الآخرين؟

علينا أن نقوم بموضوعية وشجاعة «بتحليل الفجوة»

بيننا وبين غيرنا، تعليميًا وإعلاميًا، والعمل على تجسيدها  
مستنيرين بتجاربههم وخبراتهم.

إننى أدعو إلى الاستفادة من ثلاث مبادرات عالمية:  
أمريكية وهندية وصينية؛ ففي أمريكا يتم التركيز على التعليم  
قبل الجامعى فى مبادرة سُميت «العلم لكل الأمريكيين» ولها  
امتدادات فى التعليم العالى والإعلام والثقافة، وفى الهند  
مبادرة لبناء استراتيجية الثقافة العلمية على أساس السياق  
المجتمعى. أما الصين فقد بدأت مبادراتها فى عام ٢٠٠٨م،  
وتُقدم على أساس الوصول إلى المستوى الغربى فى الثقافة  
العلمية عبر مراحل مخططة ومدروسة.

وإذا ما اقتنعنا بهذه الملاحظات أو المنطلقات التى تتعلق  
بالثقافة العلمية بالذات، والاتفاق على المفهوم والحرص على  
الجودة كمًا وكيفًا، علينا أن نستعين بالله ونبدأ فى تنظيم الجهود  
وصياغة الاستراتيجيات ورسم السياسات. ومع الاستفادة  
من تجارب الثقافات الأخرى، سيكون مفيدًا أن نعتبر انتماءنا  
إلى الثقافة العربية منطلقًا للتعاون بين الدول العربية فى  
إحداث «نقلة نوعية» فى هذا المجال.

## نحو خريطة معرفية للترجمة العلمية

مع احتفاء المركز القومي للترجمة بتضمين أكبر عدد ممكن من العناوين الحديثة في المجالات المختلفة للعلوم والتكنولوجيا، وتعظيمًا للعائد المنتظر من هذا الاهتمام المشكور، اقترحت في أول اجتماعات اللجنة الاستشارية الخاصة بالعلوم والتكنولوجيا أن يتم العمل في إطار خريطة معرفية متكاملة، يتم في ضوئها تحديد الأولويات والاختيارات.

إن الطابع البانورامي والتفصيلي للخريطة المذكورة يمكننا مما يلي:

\* تحليل الفجوة، بالتعرف على المجالات التي تعاني من نقص ملحوظ في العناوين المترجمة بشكل عام، والحديث منها بشكل خاص.

\* البحث عن المترجمين المتخصصين، والمتميزين في المجالات المعنية ودعوتهم للمشاركة، وفي حالة عدم

توفرهم، تشجيع المتخصصين ومعاونتهم على التوجه للترجمة العلمية وتنمية مهاراتهم فيها.

\* تحديث وتطوير العناوين المتوفرة في بعض المجالات، مع الحرص على التنوع، وتغطية الاتجاهات الجديدة والبازعة، ذات البعد المستقبلي الواضح.

\* الاهتمام بوحدة المعرفة، والربط بين العلوم الطبيعية والإنسانية والإبداع، والحرص على ترجمة العناوين التي تعكس الاتجاه نحو التخصصات البينية ومتعددة وعابرة المجالات.

ولا شك أن هذه المقاربة، التي نرجو أن تهتم المؤسسات العلمية والتعليمية والإعلامية بمخرجاتها، ستساعد في زيادة علمية الجماعة الثقافية، والمجتمع الذي تسهم في تشكيل نظرتهم إلى وطنه والعالم الذي يعيش فيه.

## الخريطة للمعرفة لترجمة العلمية

المجالات	المجالات الإبداعية	ثقافة التكنولوجيا	ثقافة علمية	المجالات فنية
<ul style="list-style-type: none"> <li>• وحدة المعرفة (ملاحة) بين التخصصية الجديدة</li> <li>• والفكرة</li> <li>• العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإبداع)</li> <li>• فنتاج الثورات العلمية</li> <li>• والتكنولوجيا</li> <li>• (المعلوماتية والاتصالات - الحيوية</li> <li>- الفنون تكنولوجيا والمواد الجديدة)</li> <li>• الدراسات مستقبلية (تطور</li> <li>العلمي والتكنولوجي ومستقبل</li> <li>الإيمان)</li> </ul>	<ul style="list-style-type: none"> <li>• علم كسبية</li> <li>• إبداعية</li> <li>• العلم والأدب</li> <li>• العلم والفن</li> <li>• لخيال العلمي</li> <li>• صناعات</li> <li>• الإبداعية في</li> <li>مجالات العلم</li> <li>والتكنولوجيا</li> </ul>	<ul style="list-style-type: none"> <li>• علوم تطبيقية</li> <li>- قلب والوراثة</li> <li>- الزراعة والغذاء</li> <li>- صناعة</li> <li>- الطاقة</li> <li>• تكنولوجيا</li> <li>- علم تكنولوجيا</li> <li>- المعلومات والاتصالات</li> <li>- التكنولوجيا الحيوية</li> <li>- الفنون تكنولوجيا وعلوم المواد</li> </ul>	<ul style="list-style-type: none"> <li>• رياضيات</li> <li>• فنون ولغويات</li> <li>• الفيزياء</li> <li>• الكيمياء</li> <li>• فيولوجيا</li> <li>• الأيكولوجيا</li> <li>• البيئة والمناخ</li> <li>• الاستشفاء العلمية</li> </ul>	<ul style="list-style-type: none"> <li>• مجالات فنية</li> <li>• لدراسات</li> <li>• فنية</li> <li>• تاريخ</li> <li>• موسيولوجيا</li> <li>• فنون تكنولوجيا</li> <li>• اقتصاديات</li> <li>• تعلم وتعلم</li> <li>• سياسات</li> <li>• إعلام</li> <li>• دراسات ثقافية</li> </ul>

## الفهم المجتمعي للعلم

أحسنّت بعض الجامعات البريطانية صنعًا بإنشاء كرسي «للفهم المجتمعي للعلم»، تحرص على أن يشغله عالم يجمع بين إحترام أفراد الجماعة العلمية التي ينتمى إليها من ناحية، والقدرة على التواصل مع القطاعات العريضة من المجتمع التي لا يشتغل أبنائها بالعلم، وإن كانوا يهتمون به وبمبجزاته، ويدركون الآثار الكبيرة التي تحدثها على نوعية حياة الإنسان.

هذه الفكرة جديرة بأن تحظى بما تستحقه من اهتمام في معرض جهودنا الحالية لتطوير الجامعات بالدول العربية. إن الحديث عن معايير الجودة المطلوبة يهدف إلى الحصول على الاعتماد الأكاديمي، يركز على التعليم والتعلم والبحث العلمي. ويتطرق إلى خدمة المجتمع بالنسبة لتوظيف العلم في حل المشكلات التطبيقية. وهذه أمور كلها مهمة لا خلاف حولها، وإن كان شيخ التربويين العرب، الدكتور حامد عمار يدعو منذ سنوات طويلة إلى الاهتمام بالدور التنويري للجامعة.

إن شيخنا ومعلمنا يعتبر هذا الدور التنويرى ووظيفة رابعة للجامعة، وأستئذنه في أن أضمه إلى الوظيفة الثالثة الخاصة بخدمة المجتمع فعلى الجامعة أن تقدم لمجتمعها «خدمة معرفية» تتعامل مع العلم من منطلق وحدة المعرفة، التي تزيل الحدود بين العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية. وتدفع إلى الإبداع والابتكار لدى الأجيال الجديدة. والبعد المستقبلي لهذه الخدمة يجعلها لا تقل أهمية عن الحلول التطبيقية المطلوبة بإلحاح لمشكلات الصحة والطاقة والزراعة والإسكان... إلخ.

إنها تقدم «ثقافة علمية» متكاملة، قادرة على تشكيل عقول شابة قادرة على التصدى لكل المشكلات في سياقها المجتمعي، الذي تشعر بالانتماء إليه.

والحقيقة، أن قضية «السياق المجتمعي» تستحق التوقف والتحليل. لقد ذكرت في مطلع المقال تجربة الجامعات البريطانية، وهي تجربة رائدة بكل المقاييس وطالبت بالاهتمام بالفكرة، لكنني بالنسبة لكل تجارب التقدم لا أومن «بالنقل

الكمى»، لكننى أومن «بالنقل الكيفى» نستفيد من مغزى الفكرة، وندرس أسلوب تطبيقها الملائم لنا، فمن أشهر من شغل كرسى الفهم المجتمعى للعلم البيولوجى «ريتشارد دوكنز»، الذى اختار أن يتخذ مواقف حادة معادية للدين والإيمان، وقد أثارت مواقفه البعض، حيث اتهم بالتجاوز وعدم الموضوعية، وبعد انتهاء مهمته شغل مكانة عالم الرياضيات ماركوس ديسوتوى، الذى اعترف بأنه لا يجب العلم، لكنه يعشق الرياضيات، ويطمح أن يحقق فى تقديم العلم للمجتمع ما أنجزه بالنسبة للرياضيات، من كتب مبسطة وبرامج تلفزيونية. ويتندر كثيرون على ذلك، قائلين إن اختبارات العلوم والرياضيات تثبت تفوق العديد من الدول الآسيوية على كل الدول الغربية، بما فى ذلك بريطانيا. وهذا ما أعنيه بالنقل الكيفى، فالفكرة جيدة: على الجامعات أن تنشر المعرفة العلمية المتكاملة، لكننا لن ننقل الفكرة كميًا، فلن يكون من بيننا من يبحث عن كاره للدين أو كاره للعلم ليشغل كرسى الفهم المجتمعى للعلم، لو فكرنا فى إحتواء جامعاتنا على مثل هذا الكرسى.

واستمرارًا للاحتفاء بالسياق، أؤكد أن الجامعات العربية قد تقدم نموذجًا طيبًا يستفيد منه الآخرون. أقول ذلك بلا مبالغة، وأقرنه ببعض الإشارات المنهجية، لو صح التعبير:

- هناك مراجعات حديثة لتقديم تاريخ العلم بشكل أكثر حيادية وموضوعية، تظهر دور الحضارات المختلفة في مسيرته، وتخص الحضارة العربية/الإسلامية بالكثير. وكم أشعر بالأسف عندما أجد أن الظلم يقع على حضارتنا من بعض أبنائها، وأعذرني من ذكر الأسماء. وأظن أننا يجب ألا نكتفى بما فعل الغير، فهذا أمر معيب، لقد نظم المركز الثقافي الفرنسي في مصر احتفالية استمرت لمدة طويلة، تحت عنوان «عندما تكلم العلم بالعربية». عيب علينا ألا نقدم إسهامًا رصينا في هذا المجال.

- يتحدث الغرب أيضًا عن «العلم المفقود» الذي ينتج في العالم الثالث، ولا يظهر بالقدر الكافي لصعوبة نشره في الدوريات الشهيرة، على الرغم من جودة مستواه، يمكننا الاهتمام به وإظهاره بالشكل اللائق، من خلال النشاط

المقترح للجامعة، إن العقول المهاجرة أثبتت كفاءتها، وهذا أمر طيب، لكن هؤلاء الذين ربطوا مصائرهم بمصائر أوطانهم يستحقون اهتمامًا أكبر، ودعمًا غير محدود، ينميهم ويجعل مجتمعاتهم تنمو بجهودهم.

ومع كثرة الإنجازات العلمية وتطبيقاتها، تزداد الحاجة إلى توجيهها لصالح الإنسان، وتلافي «التطبيقات المارقة» التي تتعارض مع العقائد والأخلاقيات وتضر بالبيئة، وتؤدي إلى الدمار. لقد صارت «أخلاقيات العلم» أمرًا حيويًا، حتى أن «مشروع الجينوم البشري» مثلاً خصص ٣٪ من ميزانيته للجوانب الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لتطبيقاته. ألا يذكرنا ذلك بمفهوم رائع قدمه ديننا الحنيف، وقصرنا في تقديمه إلى البشر جميعًا: العلم النافع!!! لعل جامعاتنا تسهم في رفع الغبن عن هذا المفهوم الذي يصلح للماضي والحاضر والمستقبل، عندما ننشر المعرفة عن أخلاقيات العلم.

لقد حاولت فيما سبق أن أقدم بعض النماذج «غير الحصرية» لما يمكن أن يعبر عن الدور المعرفي للجامعات

العربية، الذى قد تمتد فائدته إلى كل البشر من دون الاقتصار على الشعوب العربية، وحرصت على تأكيد الاستفادة «الكيفية لا الكمية» من تجربة الجامعات البريطانية. وإن كان «النقد الذاتى» يقتضى أن أذكر تخوفًا أساسيًا تتعرض له جهود التطوير عندنا. إن بعض هذه الجهود تتحول، بشكل أو بآخر، إلى مسألة «بيروقراطية ورقية»، عشرات الاجتماعات ومئات الاستمارات و «دمتم»!! إن هذا الأسلوب لن يؤدى إلى شئ بالنسبة لممارسة الجامعة لدورها المعرفى، إنها مهمة تحتاج إلى فريق عمل متحمس، قادر على التواصل مع الإعلام المقروء والمسموع والمرئى. ومراكز البحث العلمى، والنوادر ومراكز الشباب وغير ذلك من الجهات الحكومية والأهلية، هذا الفريق مطالب بوضع الرؤية والرسالة والاستراتيجية. والتشاور مع كل الجهات لعمل الخطط التنفيذية، والتواصل مع التجارب العالمية، واختيار ما يناسب السياق المجتمعي الخاص، وهذه كلها أبعد ما تكون عن البيروقراطية، ولعل نجاح جامعة عربية واحدة فى القيام بذلك يمثل نموذجًا وحافزًا لغيرها. كم أتمنى أن تقوم بذلك جامعة مصرية!!

## دنيا العلم .. سحر الخرافة .. إلى متى ؟

لم يعد الأساس العلمى لكل منجزات النشاط البشرى موضع خلاف من أحد، ولا تستثنى من ذلك الأحداث الرياضية الكبرى، المتمثلة فى الدورات الأولمبية ومونديال كأس العالم لكرة القدم، وغيرها. إن التحليلات المدققة، التى تصاحب هذه الأحداث، توضح دور التخطيط والإعداد العلميين فى تكسير الأرقام القياسية للأبطال فى الرياضات المختلفة، وتجاوزها من دورة إلى أخرى. كذلك يسهم تقييم التخطيط والإعداد فى توقع فرص الفرق المشاركة فى المونديال. لكن الحماس والانفعال المصاحب لمونديال الساحرة المستديرة كما توصف كرة القدم، واللايقين الذى يصاحب نتائجها، ويتأثرة بصورة أو بأخرى بالحظ وظروف التحكيم، يتركبان مساحة لواحدة من أقدم «غوايات» العقل البشرى: اللجوء إلى الخرافة. لقد مارس المجتمع الألماني، وهو من أكثر المجتمعات علمية وعقلانية، «خرافة بول» الأخطبوط الذى يختار علم الدولة التى تفوز، وضحت

توقعاته كلها!!! هل يعنى ذلك أن العلم ليس لديه ما يقوله في حالات «اللايقين»؟ بالطبع لا، لقد علمنا دراسة الاحتمالات، وشارك العلماء والفلاسفة الألمان في ذلك باقتدار.

لماذا يترك الألمان، وكل البشر اقتناعهم بالعلم والاحتمالات جانبًا في بعض الأحيان، ويركضون إلى الخرافة؟ لماذا لم تختف الخرافة في عصر العلم، وتوجد في أكثر المجتمعات علمية؟ هنالك من يرى أنها متضمنة في بنيتنا العقلية، ويقترح أن لها ميزة تطورية قديمة تتعلق بالخيال، وهو من أهم وأكثر خصائص العقل البشرى خصوبة وثراء. لقد كان للخرافة والأسطورة، بل والسحر، دور لا ينكر في بذور العلم والمعرفة. هكذا تقول لنا دراسات علم الإنسان أو الإناسة (الأنثروبولوجيا). لكن التفكير العلمى، الذى يرى فيلسوف مثل كليفرد أنه لا يمثل أحد أدوات التقدم، لكنه التقدم نفسه، وضع الخرافة في حالة «التسلية الفولكلورية» في المجتمعات التى أخذت بأسباب العلم، ومازالت تحكم عقلية

المجتمعات التي لم تأخذ بها.

وما دام حديثنا قد انطلق من حكاية أخطبوط المونديال، فلا بأس من أن نتطرق إلى متابعتنا الانفعالية والأيدولوجية له، وكأكثر أشكال النقد الذاتى ذاتية، أعترف بأننى تابعت النتائج وتمنيتها وفقاً «لأخطبوطى الأيدولوجى» الخاص، الذى خذلنى كثيراً، تمنيت للجزائر، الفريق العربى الوحيد، حظاً أوفر، ثم انتقلت إلى فرق أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية (فقد تربيت على حب هذه الثلاثية الجنوبية). وعندما خرجت كلها، لم أجد إلا أسبانيا (الأندلس الذى فى خاطرى) لأتمنى لها الفوز على ألمانيا، ولم يخذلنى أخطبوطى فى هذه المرة، وأكتب هذه السطور قبل مباراتها مع هولندا، هل سيفوز الأندلس؟ وهل هو «أندلس» بأى صورة من الصور؟ وهل نسى ما فعللوه بمسلميه بعد السقوط؟ قد لا تكون المتابعة التى ذكرتها، والتى لا شك أن من بيننا من مارسها مثلى، خرافية تماماً لكنها بالقطع ليست علمية. لكننى أطمئن القارئ بأنها توضع كل ما هو «لا علم» فى مكانه الوحيد

الباقى: «التسلية الفولكلورية»، التى تسمح بالمغازلة الثقافية للتاريخ والجغرافيا، دون أن تفقد بوصلة العلم ومنهجه.

قد يتساءل البعض: ما دمنا قد توصلنا إلى المنهج العلمى، وأخذ فى حياة الشعوب المتقدمة هذا الموقع المعتبر، لماذا لا تختفى الخرافة تمامًا؟ ألم ينته دورها؟ واسمحوا لى أن أجيب بسؤال آخر: لماذا لم تختلف الزائدة الدودية فى الإنسان، أو المصران الأعور كما تسمى، رغم أنها ضرورية للحيوانات أكلة الشعب فقط؟ إن التطور، الذى أعود إليه كثيرًا فى تفسير العديد من المسائل، يعلمنا بقاء الأعضاء الأثرية مثل هذه الزائدة، رغم تلاشى أهميتها. قد يكون هذا التشبيه تقريبياً، غير كامل الدقة، فالخرافة حاضرة فى كل الثقافات، بدرجات مختلفة من الظهور والاحتقان فى بعض الأحيان، وهى فى ذلك تشابه الزائدة الدودية، التى يحدث احتقانها الضرر، ويزداد ضررها بانفجارها، الذى يعادل تفسى الخرافة واللاعقلانية فى المجتمعات البشرية! إن الخرافة لا يمكن أن تختفى فى مجتمع من المجتمعات بقرار أو بقانون، وستظل طويلاً كعضو أثرى

في الذاكرة البشرية، يذكرونا بأحقاب قديمة في تاريخ الحضارات، وتبقى آثاره في بعض الممارسات المسلية الخاصة بالتفائل والتشاؤم وقراءة باب الحظ في الصحف وحكاية الأخطبوط بول، وما إلى ذلك. لكن الضرر والاحتقان يظهران مع تخطى الخرافة لحدود «التسلية الفولكلورية»، لتصل بصاحبها إلى معاداة العلم ومنهجه ومنجزاته، والافتقار بالعلم الزائف وممارساته (في مجال الصحة الذات)، وإلغاء العقل في أمور كالتنجيم والشعوذة والدجل وقراءة الكف وتفسير «همايوني» للأحلام، هل يمكن لمجتمع عقلاني أن يقبل علاجات غير مقننة ويترك الطب، وأن يلجأ إلى التنجيم كبديل للدراسات المستقبلية، والتفسيرات الجاهلة للأحلام كبديل لعلوم الطب النفسى والأعصاب والصحة النفسية؟ ألا يؤدي ذلك إلى احتقان الخرافة وتضخمها، وينتهي الأمر إلى انفجارها!!!

أنتى أرجو ألا ينزعج القارئ من كل ما سبق، فمع تأكيدنا على استمرار الوجود الأثرى للخرافة في عصر العلم،

جدير بنا أن نتساءل: لماذا صارت أثرية؟ والإجابة المباشرة البسيطة: أن العلم ومنهجه هما اللذان جعلها كذلك، قولاً واحداً، لقد أخضع العلم ظاهرة الخرافة للدراسة، وصارت لها نظرياتها النفسية والوظيفة والبنوية والسياسية، وتعرف على دورها في الأنثروبولوجيا الثقافية. وواجه ما كانت تمد به الإنسان من «جماليات الوهم» في تفسيره وفهمه للعالم وظواهره وأحداثه «بجماليات الحقيقة». لم تعد الأرض قائمة على قرن ثور؛ تحدث الزلازل عندما تهتز فوقه، بعد أن فهمنا دور الصفائح التكتونية في حدوثها، وبعد أن أثبت ماجلان كروية الأرض، وظل البعض حتى وقت قريب ينكرون ذلك، صورناها وهي تسبح في الفضاء، وأسميناها بالقرية الكونية، وبعد أن اعتقد البعض طويلاً في مركزية هذه الأرض، وأن كل شيء يدور حولها، حطم كوبرنيكوس وجاليليو هذا الوهم الجميل، وعرفنا الحقيقة الأجل، فوجودها على مسافة محددة من الشمس، ودوراتها حولها، مهدداً لظهور الحياة وتفوقها، وصولاً إلى سيد الكائنات.

هكذا يعلمنا العلم ومنهجه كيفية التعامل مع الخرافة، علينا أن نخرجها تمامًا من دائرة فهم العالم والتعامل الموضوعى مع حقائقه، لأن هذه الدائرة لا يصح التعامل فيها إلا بالعلم، والعلم فقط. وبعد ذلك، لتبقى الخرافة لأمد قصير أو طويل «كتسليّة فولكلورية» كما ذكرنا، أما الأفراد والمجتمعات، التي تفضل الركون إلى الخرافة بكل تجلياتها الظاهرة والخفية، فلن تنفعها كل أخطبوطات وحيوانات العالم في توقع تقدمها وإفلاتها من هاوية التخلف. لا بأس من أن نشارك في التسليّة الخاصّة باستخدام الحيوانات في توقع نتائج الرياضات المختلفة. فالأمر لا يقتصر على الأخطبوط، لكن هنالك من استخدم الدجاج والبيغاء والأورانج أوتان والخنزير، التي ذبحناها بقرار رأت منظمة الصحة العالمية أنه غير علمي، وذكرت مجلة «سيانس» الشهيرة بذلك في تقريرها عن عام ٢٠٠٩. نعم، لا بأس من أن «نتسلى» بالخرافة، ولكن حذار أن «نتسلح بها»، فهي سلاح الهزيمة المؤكدة.

أخيرًا، حرصت على أن أنهى هذا المقال حين كتبتة قبل

معرفة مدى «صدق» توقعات بول الأخطبوط الألماني وماني البيغاء السنغافوري بالنسبة لمباراة ألمانيا وأوروجواي، التي صالح فيها الأخطبوط قومه باختيار ألمانيا، ومباراة النهائي بين أسبانيا وهولندا، التي أعاظ بها قومه باختيار أسبانيا، التي أضاعت عليهم الكأس، وإن كان قد اختارها بعد تردد. لقد حدثت نفس قائلًا: كفى خرافة... أقصد كفى تسلية، فالعلماء يقولون أن الأخطبوط ينظر إلى اليمين، وينجذب إلى الألوان الزاهية والخطوط العرضية، وهذا ما حكم اختياراته، وعندما أخبرني أحد الأصدقاء أنه تفرغ تمامًا لمشاهدة المباريات، وهو أمر لا غبار عليه فالرياضة متعة للبشر جميعًا، ذكرته أن صديقنا المشترك أحمد مستجير، رحمه الله، تساءل ذات مرة: متى ينتقل اهتمامنا من الأقدام إلى الرؤوس؟ فاجأني بقوله أن أجمل أهداف كرة القدم تأتي بالرؤوس!!! حينئذ لم أردد القول المنسوب إلى سعد زغلول «مفيش فايده»، لكنني سألته: هل توافق على أن نتائج الأربعة الكبار في المونديال كانت محصلة علم وتخطيط؟ فوافقني بشدة، وهذا هو المهم، كل مونديال وأنتم وعلمكم أما الأخطبوط فقد مات!!!